من وحي روما

لا أزال افاضل بين روما وباريس من حيث الجمال. ان أخذت الاولى حياً حياً أؤثرها على العاصمة الفرنسية وان اخذتها تجمع حضارات متجاورة في المدى المدني. لون ابنيتها البني او البرتقالي أو ما اليهما يدخل الى ثنايا النفس. ولوحات الاساتذة الأكابر منثورة في الكنائس ولكنك هناك يجب ان تكون مهيأ بالدراسة لتحج الى الجمالات. وتمشي ثم تمشي لتجد معبداً لميترا أو العمارة البيزنطية وفسيفساءها.

استوقفني مشهد راهبات وانا في طريقي الى بازيليكا القديس بطرس الرسول. أظن انك لا تستطيع ان تهمل فيما تتأمل الكنيسة الكاثوليكية انها تخرج مئات أو الوفا كل سنة منهن ومن الرهبان. هذا يعني ان ثمة عائلات تنشىء الاولاد على رؤية المسيح الذبيح. انا لا أقدر تاليا على ان اتعامل وكنيسة كهذه فقط من حيث انها لم تتصرف كأخت لنا في كل حقب عمرها. لا اؤرخ للخطيئة، أورخ للبر، لكل هذه الوجوه المكرسة التي اعطتنا الكثير وتركت أحايين كثيرة بهاء الغرب وعمرانه لتكون متواضعة في خدمة أهلنا والأفارقة. لهم ان يؤمنوا بالبابا في صيغة لا اعتبرها راسخة في تاريخنا المشترك. ولكن هذا لم يمنع عنهم هذا الاخلاص المذهل الذي جعلهم يتجردون من كل شيء خلا العشق الالهي. أظن ان حوار الكنائس يمر بهذا كله ولا ينحصر في مواجهة كتبهم لكتبنا.

يحبونك ويقولون انك تقريبا كامل الشركة معهم. أعرفها عبارة رجراجة. ما هو هذا الـ"تقريبا"؟ طبعا يعوزك الكثير لتتربى على العقل الروماني. فليست لكل النصوص الصادرة عن دوائر الفاتيكان السلطة نفسها. الوثيقة المنبثقة من مجلس تعليم الايمان ولو وافق عليها البابا لا يولونها الاهمية التي للرسائل الرعائية التي يبعث بها البابا الى العالم. ولهذا تبدو لك تناقضات في ما تقرأ بأقلامهم. فاذا قال الكاردينال راتسنجر المسؤول عن سلامة العقيدة ان الكنائس الارثوذكسية ليست كنائس شقيقة وقال عكس ذلك اسقف روما نفسه على رغم توقيعه وثيقة راتسنجر، عليك ان تقوم بجهد عظيم لتفهم. ليس من السهل ان تعرف أين روما في كل هذا الخضم من الفكر ويلفتك ان مجالسها المختصة تقول شيئا ويرفع هذا الى الاسقف الروماني. ولكنك تفهم اذا استطعت ان تتسلل الى الكواليس ان ثمة "مراكز قوى" أو على الأقل ان هذا أو ذاك من اللاهوتيين مسموع أكثر من سواه وتاليا ان الفاتيكان ليس عمارة مصبوبة صبة واحدة من الاسمنت المسلح.

* * *

يستطيع الفاتيكان ان يتردد وان يتماوج بين موقف وموقف حسب الحقب وحسب الاشخاص. انه ليس ذلك الهرم الذي ينزل من قمته كل شيء ويذهب الى العالم كله كلمة واحدة. ولذلك ترى ان البابوية يصدر عنها دائما مواقف تحفظ أو لوم أو تأنيب لكلمات واشخاص ولا يعني ذلك ان كل هذا يطاع ويُنفذ.

فقد جاءت وثيقة "الرب يسوع" في ٦ آب من السنة الماضية ولم يقبلها الارثوذكس ولا الانجيليون بسبب قولها بالترادف الكامل بين كنيسة المسيح والكنيسة الكاثوليكية وعدم الترادف بين كنيسة المسيح والكنائس الأخرى. والمذهل ان الذين تصدوا لهذه الوثيقة على رغم موافقة البابا عليها كانوا بالدرجة الاولى من اللاهوتيين الكاثوليك. هذا يعني ان هؤلاء ليسوا على المطواعية التي يظنها فيهم الآخرون.

من يتعاطى شؤون العلاقات بين الشرق والغرب المسيحيين اليوم يعرف ان الكنائس بشر أيضاً وانها ليست ملكوت الله ولكنها واقفة على العتبة وتتوق الدخول. لا نزال أمام عقبة كأداء وهي سوء الصلة بين الكنيسة الروسية والفاتيكان اذ يبدو ان هذه الصلات ليست سلسة في أوكرانيا. قراءتي الخلفية ان الكثلكة الشرقية هناك وقد تصل الى خمسة ملايين ازاء اربعين مليون ارثوذكسي تحمل لواء القومية الاوكرانية وتبدو لي كثيرة التجانس مع الدولة. ومن جهة اخرى الكنيسة الارثوذكسية الشرعية في أوكرانيا تابعة – على شيء من الحكم الذاتي – لكنيسة موسكو مما يظهر الارثوذكسيين باهتين في القومية الاوكرانية. طبعا لا يفسر هذا كل الخلاف على الأرض.

غير ان ما يزيد الخلاف ان الكنيسة الروسية لا تزال تحس بأن الكثلكة في روسيا نفسها تسعى الى التوسع. فهناك من يقول ان عندها بضع عشرات من المبشرين المتروضين على اللغة الروسية يتقبلون في الكثلكة روساً من المفروض ان يلتحقوا بكنيستهم الأم من بعد اهتدائهم. هناك من قال ان الحضور الكاثوليكي ليس على هذا الحجم. الواقع ان ثمة توترا يجعل سفر البابا الروماني الى موسكو متعذرا الآن.

ولكن ما يقال في شيء من الواقع ان "الغزو" الكاثوليكي لرومانيا كبير جدا. من المؤكد ان الارثوذكسيين قد يفيدون تربويا وخيريا من الكاثوليك ويراوح الكاثوليك مكانهم. ولكن اذا صحت الأخبار نكون أمام تناقض. من جهة، انتشار مؤسساتي كاثوليكي ومن جهة اخرى حديث واضح للبابا واعوانه عن انهم ضد الاقتناص. ظني ان ليس هناك خط واحد في الفاتيكان بحيث تأتي السلوكيات مختلفة عن الكلام اذ يصعب على المؤسسات التبشيرية ان تغير مواقف لها اتُخذت منذ قرون.

* * *

الكثيرون يعلمون ان عمل اللجنة المشتركة بين الكنيستين توقف في بالتيمور (الولايات المتحدة) منذ تموز ما قبل السابق بسبب الخلاف الكبير حول وضع الكاثوليك الشرقيين. وهذا موضوع كان قد حل في وثيقة البلمند السنة الـ١٩٩٣ حيث قال مندوبو الكنيستين ان الكثلكة الشرقية ليست "نموذج الوحدة". معنى ذلك ان البابوية خطأت نفسها بتشكيلها هذه الكنائس الشرقية التابعة وانها تنوي اقامة علاقات مستقبلية مع الشرق لا تقوم على تبعية. ثم ارادت بعض الكراسي الارثوذكسية التدقيق اللاهوتي في موقع الروم الكاثوليك (في أوروبا الشرقية) وأخذنا نفحص هذا الأمر حتى انتهينا معاً الى إخفاق.

أما موقف الوفد الأنطاكي في البلمند في اثناء المناقشات فكان انه لا ينبغي ان نعمل من الروم الكاثوليك قصة. هم موجودون وسيذهبون عند تحقيق الوحدة. فرأينا، آنذاك، ان هذه نقطة خلافية تضم الى الملف ولو سمعونا لتصدينا مباشرة للقضية الخلافية الكبرى اعني رئاسة بابا رومية وعصمته. فالخلاف النظري لا يزال قائما. شعورنا هنا في انطاكية ان الافتراق العملي في شأن الكنائس المتحدة بروما سوف يزول اذا توصلنا الى تفاهم مع روما.

الجدل النظري كما مورس في القديم قد يبقى الى الأبد. ذلك ان الجدل متصل بوجود لاهوتين شرقي وغربي وان العقائد التي حددها الغرب في الألفية الثانية لا يمكن ادراجها في اللاهوت الشرقي او استمدادها منه. فالشرقيون مخلصون كليا والغربيون مخلصون كليا. والمحاولة القديمة عند الكاثوليك لاقناع الارثوذكس ان العقائد التي استخرجتها الكثلكة كامنة في الارثوذكسية باءت بالفشل. فالارثوذكسيون مقتنعون ان شيئا من هذا غير موجود. فالقول بالحبل بالعذراء منزهة عن الخطيئة الاولى لا يجد له ارضية البتة عند الارثوذكس. وانبثاق الروح القدس من الابن ايضا. هذا الفكر المقارن المجادل المساجل لم يؤد ولن يؤدي الى شيء عند لاهوتيين رصينين. ما العمل اذاً؟

السؤال ليس من معه حق ومن ليس معه حق. السؤال هو هل من مبدأ أو معيار يجعلنا نتحد على اختلاف؟ هل يمكن ان نشكل مذهبين شرعيين دون ان يكفر احدنا الآخر؟ هل من مرجعية نحتكم اليها ويترك لنا حرية الرأي في ما تجوز الحرية فيه؟

هنا يسعفنا الموقف الكاثوليكي القائل الآن باطراد ان هناك مجامع مسكونية هي سبعة وكان فيها الشرق والغرب وهناك مجامع اقليمية شرقية أو غربية كان الطرف الآخر غائبا فيها. الاولى ملزمة والثانية غير ملزمة. بكلام آخر ما قيل في الألفية الاولى مقبول لدى الكنيستين. ما قيل في الألفية الثانية يمكن تركه للبحث من بعد اتحاد فوري على أساس المجامع السبعة.

في هذا المنطق مجمع الفاتيكان الاول المنعقد السنة الـ١٨٧٠ وحدد ولاية بابا رومية المباشرة على العالم كله وحدد عصمته يكون من المجامع الغربية التي غاب عنها الارثوذكس. ويقول بعض علماء القانون الكنسي الكاثوليكي ان الحرم الذي صدر عن المجامع والذي يكفر رافضي الولاية البابوية وعصمته لا يطاول الارثوذكسيين بل يطاول أؤلئك الكاثوليك الذين كانوا في المجمع ورفضوا سلطته.

هذا هو في اعتقادي الوحيد المخرج من المأزق. وتنظم الكنيسة اداريا بحيث لا تمارس السلطة البابوية كما هي اليوم في الشرق بل يمارس سلطان البطريرك الاول بين أخوة متساوين. تجتمع في شخص واحد سلطتان له: سلطة رئيس تنفيذي في الغرب على ما اعتاده وسلطة بطريرك اول (بين اخوة متساوين) في الشرق على ما اعتاده.

في التماس البابا يوحنا بولس الثاني في رسالته الحبرية: "ليكونوا واحدا" ان يتذاكر المسيحيون في ما كان عليه المقام البابوي في الألفية الأولى استعداد مبدئي لمواجهة جديدة لمشكلة الوحدة. قلت مبدئي لأن التشدد العقائدي في روما لا يزال قائما ولأنهم في حالة "نهاية عهد" هي في يد الله وحده. مقابل ذلك يحتاج العالم الارثوذكسي الى توحيد قلبه فتوحيد كلمته وان يقول الكلمة مطمئنا، حراً من الهوى.

على الصعيد العقلي نحن الآن اقرب بعضنا الى بعض مما كنا. هل تنفطر القلوب في التواضع لكي يلتحم العقل والقلب في هذا الشرح الذي عرضناه في أسطر؟ هذا أمر اقتنع به علماء كاثوليك كبار وبعض منا.

المطران جورج خضر